

الإبداع والنظام التعليمي

إننا نشاهد فيلماً بعنوان: «المكتشفون»، تُعرض فيه مكتشفات بعض العلماء. وعند خروجنا من الصالة، نتساءل ما هي القواسم المشتركة بين هؤلاء الرجال والنساء. فيخطر في بالنا بعض منها:

- إنهم أشخاص لديهم تساؤلات.
- إنهم أصحاب مخيلة لإعداد فرضيات غير بديهية.
- لديهم الجرأة والشجاعة على تأييد ما يخرج عن التصورات السائدة.

- لديهم نفس لإتمام مشروع، واختيار فرضية.

- إنهم يعملون وفق نمط تفكير استكشافي.

- لديهم حس الملاحظة.

- لديهم علاقة إيجابية بالخطأ. ولما كان هذا الأخير جزءاً من التفكير الاستكشافي، فإنه لا يُعتبر كحادث يقتضي تجنُّبه بل كمرحلة ضرورية في بناء المعرفة.

- إنهم يصغون إلى أنفسهم.

- إنهم يستخدمون مناهج عقلية عدة.

- لديهم قدرة كبيرة على ربط الأمور.

تلك هي بعض القواسم المشتركة التي تتراءى لنا ونحن نغادر صالة السينما، والتي تدفعنا إلى أن نطرح على أنفسنا السؤال التالي: إلى أي حدّ يساعد نظامنا التعليمي، بطرائقه ومناهجه، على بروز أشخاص مبدعين، باحثين و«مكتشفين»؟

المُساءلة: إن نظامنا التعليمي مرتكز على «التربية الامتصاصية» وليس على «التربية الاكتشافية». فالمتعلم يُعد مستهلكاً سلبيّاً لمعرفة لا يشارك فيها. وهو لا يُعد شريكاً فاعلاً وطرفاً معنياً ببناء معرفته.

إن رهان التعلّم يقوم على مراكمة أكبر قدر ممكن من المعارف بقصد إعادتها وتسميعها. وقلما يمكن استعمال هذه المعارف المفهومة والمكتسبة بهذه الطريقة.

فسرعان ما يقوم التلميذ بالتخلّص منها، إذ ينساها حالما ينتهي التسميع. والغاية من التعلّم ليست المشاركة الناشطة في بناء معرفة متزايدة باستمرار.

ندى مغيزل



٤

ثم إنه ليس مطلوباً من التلميذ أن يطرح أسئلة أو يتساءل بحيث ينمي قدرته على التفكير بل المطلوب منه إيجاد الجواب الصحيح بحيث يندرج دوره في منهج تقييدي محصور في ثنائي «المثير - الاستجابة»، فلا يبادر بذاته إلى استدلال مبني على المساءلة. لكي يكون المرء مكتشفاً، يجدر به أن يكون مقدماً.

المخيلة: إن نظامنا التعليمي لا يعد المخيلة ملكة ينبغي تنميتها، بل هي رכיعة تُستخدم في إطار التعبير الكتابي في المرحلة الابتدائية. وأحياناً، تكون في هذه المرحلة مرادفة لـ«الطائشة» (Folle du Logis)، فهي لا تُعد أداة تعلم تتيح تنمية تنظيمنا العقلي بتنشيط نصف الكرة الأيمن من دماغنا. مع أن أبحاثاً عديدة قد أثبتت فاعلية استعمال المجاز والسفر الوهمي وحلم اليقظة وغيرها من التقنيات المبنية على المخيلة من أجل التعلم.

الشجاعة: التفكير يعني المجازفة والتجروء. ولا يسعنا القيام به إلا في علاقة تربوية إيجابية تدع آليات الدماغ تعمل من دون إعاقة. فهذا ما يسمح بأن تعالج المعلومات، وتبرز على نحو تفكير واستدلال، دون عرقلة الجهاز الطرفي الذي قد يمنع تكون قدرتنا على الاستدلال. وتتأمن هذه الشجاعة:

- من خلال صورة إيجابية يكونها التلميذ عن نفسه. فهذه الثقة بالنفس ضرورية لأنها تتيح للمرء أن ينظر إلى نفسه كشخص يمكنه التفكير ويتمتع بمشروعية ذلك. وهي تفترض علاقة قائمة على احترام شديد للمتعلم.

- من خلال صورة إيجابية للمعلم، كحاور مميّز، وكوسيط بين المتعلم والمعرفة، وكمحور للتماثل، يمارس هو أيضاً عملية التفكير والتساؤل.

- من خلال صورة إيجابية للمادة تأميناً لحسن التحكم بذلك القسط من القلق المعزو إلى المجهول، وجعل هذا الأخير دينامياً ومصدر حفز لا مصدر كبت وإعاقة.

وتتأمن هذه الشجاعة خاصة بفضل نوع من العلاقة بالخطأ، الذي ينبغي الكف عن النظر إليه كحادث يقتضي تجنبه، بل ك لحظة ضرورية ومفيدة لكل اكتشاف.

إذا كان التلميذ يخاف أن يُخطئ، فهو لا يستطيع التفكير، لأنه لذلك يمنع نمط تفكير استكشافي من الانطلاق ويحصر نفسه في نمط تفكير أحادي الاتجاه، تقييدي ومسكون بهاجس الجواب «الصحيح».

نحن نعلم أن قانون الأجوبة المتعددة هو أحد قوانين التعلم. وهو أساسي لكل إبداع. إن الجراءة على التفكير تفترض الجراءة على ارتكاب الخطأ. فارتكاب الخطأ مفيد للتعلم والاكتشاف.

- من أجل التفكير والاكتشاف والإبداع، لا بد لنا من تعلم الملاحظة والتمييز، أي استخدام ما نلاحظه ونحس به عبر أجهزتنا اللاقطة: حواسنا. لا بد من أن نتعلم استخدامها كأدوات معرفة، وأن نتعلم التعلم بجسدها لا ضدها، كما هي الحال غالباً في مدارسنا.

- من الضروري، كي نكون مبدعين، أن نتمتع بفكر مرن وطبيح، وهو المؤهل له دماغنا، والذي يعد أحد معايير الذكاء بمفهومه الحالي. لكن، بأية طريقة تُنمي قابلية المرونة هذه في نظامنا التعليمي؟

- إن إحدى نتائج هذه المرونة اكتساب القدرة على الربط، التي هي في أساس كل تفكير والتي تراعي آلية عمل دماغنا القائمة بنسبة ٨٠ في المئة على الربط. الربط بين المجالات والمعلومات والسجلات والميادين المختلفة.

فأيُّ قسطٍ من الاهتمام توليه مدارسنا لهذه القدرة؟ وللترباط بين مختلف الميادين؟
- من الضروري، كي نكون مبدعين، أن نتمتع بِنُفُوسٍ طويِل. فالإبداع يبرز مع الوقت وفي
المدى الطويل. إنه يتطلب استثماراً في الزمن الآتي. يتطلب معرفة الانتظار والصبر، وحسن
استخدام الوقت.

فأجل الإبداع يختلف عن أجل الاستهلاك، الذي هو قصير عادةً.
فيألى أي حدٍ نعلم تلامذتنا تعود هذا الأجل الطويل، أجل المشاريع والإبداع؟
وما هي الإجراءات التربوية التي نستخدمها لنرسخ لدى أولادنا هذه العلاقة بالوقت؟
- من المفيد أيضاً، كي نكون مبدعين، أن نتمتع بتنظيم عقلي غنيّ يستخدم مناهج عدة
تستثير طاقاتنا الدماغية على أفضل وجه ممكن. فهل نعلم تلامذتنا ذلك؟ أم أننا نعلم بالاختصار
على منهج واحد، يؤدي إلى فشل الذين لديهم استراتيجيات أخرى للتعلّم، ولا يتيح للتلاميذ
معرفة تنظيمهم العقلي الخاص وتوسيع نطاقه؟

- من أجل الإبداع والاكتشاف، و«البحث»، يقتضي الابتعاد من محور معين من القيم، مبنيّ
على الطاعة والانقياد والخضوع، وهو المحور الذي تتم بموجبه تنشئة أولاد لبنان، حسبما
تثبت التحقيقات^(١). فالولد الذي يُعد مثلاً مرغوباً فيه، وصالحاً، هو الولد المطيع، المنقاد
والخاضع، وليس الولد المسؤول، المستقلّ والمقدام.

زد على ذلك أن نمط التنشئة السائد ليس النمط الليبرالي أو الديمقراطي، بل النمط التسلطي،
لدى مختلف الفئات الاجتماعية.

إذاً، لا يمكننا أن نفكر ونبدع ونكتشف ما لم نكن محترمين تماماً، ومقبولين ومسموعين
ومفهومين وأحراراً. فهل الإبداع مقرون بقيم معينة؟ وهل الجو الديمقراطي والصارم هو أكثر
ملاءمة للإبداع والبحث؟

الصورة الأولى في الفيلم كانت صورة مولود جديد. فهل نحن جميعاً مكتشفون وماذا
يصنع منا نظامنا التعليمي؟

B.U.C., *Socialization of Preschool Children in Lebanon*, Monograph Series of the Institute for women's studies (١)
in the Arab World.

L.M.Chidiac, A.Kahi et A.Messara, *La génération de la relève*, vol I, Publications du Bureau pédagogique des
Saints-coeurs, 1989.